جوالق الهموم

للآنسة الفاضلة (الزهرة)

تستوعب الأساطير القديمة ، قصة رجل كان يدلف فى مرتقى جبل صليع ، وأخذه البهر أثناء سيره من الجوالقين اللذين فدحاه. وناء تحت ثقلهما وخذلته قواه ، وأصبح لا تقيمه رجلاه ، وهو يحاول أن يشق طريقه إلى الأمام . وأخيراً انقطع من الاعياء ولم يقدر أن يغالبه وتصدى له ملك كريم ، فاستوقفه وسأله قائلا : « مالى أراك ياصاحبى الطيب تقاسى هذا الكبد، فى توقل الجبل »؟

فأجابه الرجل : « إنى أقاسى ما أقاسى ، بسبب هذين الثقلين يا مولاى »

ثم انهدفوق صخرة ليستريح قليلا

فسأله الملاك قائلا : «أيمكننى أن أستفسر منك عما وضمته فى هذين الزقرين[1] اللذين يورثانك كل هذا الجهد »؟

فقال : « آه إننى أودع فيهما هموى ».

فنظر إليه الملاك وقال له فى صوت آمر : « أطلعنى على محتوياتهما » !!

ففتح الرجل أحد الجوالقين ولكنه حين أطرق مع الملاك لاستنفاض محتوياته ، لم يجدا شيئاً فى داخله !

فسأله الملاك قائلا : « ماذا كنت تضع فى هذا العدل » ؟

فأجاب الرجل فى دهشة قائلا : « كنت أضع فيه. هموم.. أمسى .. ! ولكن يظهر أنها قد مضت وتولت » ..

فقال الملاك وهو يشير إلى العدل الآخر : « وماذا يوجد هنا ؟ »

فأجاب الرجل: «إيه ! هنا ؟ إنى أودع هنا هموم .. الغد! »

ثم حلق الرجل فى الجوالق الثانى، فوجده خاويا فارغا كأخيه .. ثم تابع كلامه قائلا : « ولكن يظهر أن لا وجود لها هنا بعد »

فوضع الملاك يده فى رفق على كتف الرجل وقال له : « دع جوالقيك كليهما .. إن الأمس قد ولى ومضى وان يمكنك أن تصنع به شيئا ، فلا تحزن على ما فات ، ولا يعظمن عليك فوته.. أما الغد ، فلم يأت بعد ، فلا تستسلفن تأخره ، ولاتستعجل ماهو آت. واعلم أن الذى يحمل أعباء يومه الحاضر، لا يحتاج إلى عدل يودع فيه همومه » .

وترك الرجل ثقله وراءه ، وانطلق لسبيله مبتهجاً قريراً .

هذا ولقد ثبت بالدليل المقنع ، أن السعادة لا تستفيض فى حياتنا إلا إذا كنا نهض ذواتنا ، لكى نحيا ليومنا الراهن فقط وننسى أخطاء الأمس ومنغصاته ، ونعقد النية على أن نرجو أن يكون نصيب الغد من التوفيق والهناء أوفى وأرق ، وعلى أن نبذل ليومنا الراهن خير ما نملك من جهد وطاقة . وقد در من استعرض هذه الحكمة الرائعة ، حين قال : « علينا أن نرجو الأحسن ، ونتأهب للاسوأ ، ونتقبل كل ما يعرض لنا ، فى حلم راجح وخلق وادع ، وصدر رحب ، ووجه طليق ، وجنان واقر » .

ولقد قيل إن الهموم صنفان : صنف يسير قريب المنزع مذال الأغصان . وصنف لا تبلغ إليه وسيلة ، ولا يقع فى حبالة أمل ، فلا تناله حيلة محتال . ولا مرية فى انه يجدر بنا أن نصلح الأمور التى يمكن أن ترتاد لها نواحى الترصين والتجويد — وأن نحسم الأدواء التى يمكن أن تنفض لها سبل العلاج — وأن نقطب الذرائع لكل معضل ممتنع وكؤود معجز . ومن اليسير أن يعرونا ضرب من القلق والخوف ، حين نعجز عن استخراج ودائع الغيوب ، والنظر إلى المستقبل من وراء ستر رقيق ، انطالعه بعين السداد والتوفيق . بل إن من اليسير إن يهن منا العزم حين تخذلنا القدرة على وضع الخطط اللازمة لمآتى أيامنا . ولكن الله تعالى شأنه ، كفيل بأن يوجه خطانا إن سلمنا له جميع طرقنا ..

ترى هل خطر لنا أن نقف لحظة ، ونستعرض الهموم التى وزحنا تحت أثقالها فى بعض أيامنا ، ثم أدركنا من بعد ، ما كان يزاملها من سخافة وتفاهة ، وسقم وغباوة ؟! أعرف طالباً جامعياً سويسرياً ، أبتلى « بعادة القلق وحمل الهموم » وأبهظته هذه العادة الآسرة الفادحة ، فرأى أن يأخذ العدة لمحاربتها والقضاء

---

(١) الزقر : كل شىء حملته على ظهرك

عليها . وما إن روى قليلا فى الآلات التى ينبغى أن يستعين بها للانتصاب فى هذه الحرب المقدسة ، حتى هداه تفكيره إلى استحضار كراسة ، يعمد إليها فى مستهل الشهر ، ليدون فيها أنواع الهموم ، التى يثيرها القلق فى تقديره ، ويسبقها التخمين إلى حسه ، ويغريه التكهن بانتظار وقوعها ، فى الأسابيع الأربعة المقبلة .. ثم يعود إليها فى آخر الشهر ، ويرى هل صدق فى دائرة الواقع العملى شئ من هذه المظنات التى زاملته من قبل .. وأقضت مضجعه !!

وكان فى مقدمة الأمور التى تورثه همّاً ملحاً — افتقاره إلى سروال من الفانلا البيضاء ، ليلبسه فى رحلة ربيعية إحتفاء بمقدم الربيع ، وأيقن أنه سيكون الشخص الوحيد الذى سيظهر فى الحفلة — دون رفاقه بغير هذا السروال . وإلى جانب هذا الهم أرهقه هم آخر لا يقل عنه خطراً وإلحاحا . وذلك لأن عميد الكلية طلب اليه أن يتولى إفتتاح إجتماع الرابطة الأدبية فى مساء يوم الخميس المقبل ، وطارت نفسه شعاعاً لهذا الطلب وهتك الخوف قميص قلبه ، .. وماذا عساه أن يقول فى مثل هذا الاجتماع المهيب — ولم يتعود أن يعتلى المنابر — وأيقن أنه سيبيت بين رفاقه الطلاب — أضحوكة من الأضاحيك — وقد دفع فى صدره العجز ، وملكت الركاكة خطامه . . وكان هذان الهمان أبرز ما فى المجموعة التى سجلها فى يوميات كراسته . وفى نهاية الشهر رجع الفتى إلى يومياته فما تمالك ان ضحك ، وضحك حتى أغرب إذ ذكر أن نصف عدد رفاقه الطلاب ، لم يظهروا فى حلة الربيع بسراويل بيضاء . ولقد هبت زوبعة شديدة يومذاك ، وندم الذين كانوا يرتدون السراويل البيضاء لأنهم لم يختاروا سواها . ثم ذكر أن العميد انتحى به فى الليلة السابقة للاجتماع المعهود وأخبره أن سائحا من كبار الأدباء سيتحدث إلى الجامعة فى الساء المقبل ، وأن خطبته من ثم يجب أن تؤخر إلى أجل غير مسمى . وعلى هذا النحو كان نصيب غالبية الأمور التى سجلها فى كراسته ، وربك ذاته بالاهتمام لها .

ولعله يحسن بالكثيرين منا أن نعد لذواتنا مثل هذه الكراسة . وما الذى يمنع أن نجرى على أسلوب ذلك الطالب المجتهد ونأخذ إخذه !!

تقول الكاتبة الروسية « ان . ج . هوايت » إن القلق أعمى ولا يمكن أن يتبين المستقبل ويوضح معالمه ويستجلى رسومه . ولكن الله سبحانه وتعالى يرى النهاية من البداية ، ويرصد الأهبة لكل صعوبة ، ويهيىء لكل ضيقة مخرجاً ومفرجاً !!

ويقول فاضل من أعلام الأدباء الاجتماعيين العاملين فى الغرب: إن القلق (أو حمل الهموم) يشبه الرمل الذى يتسرب إلى الزيت فى سيارتك وكما يبلى الرمل آلاتها وأجزاءها ، كذلك يستهلك الهم عناصر حيويتك شيئاً فشيئاً ويفنيها . بل إن القلق يشبه الصدأ الذى يأكل على الولاء بعض أجهزة المصنع فى إصرار بطىء ولا يلبث أن يحدث تحت ضرب من ضروب الضغط صدعاً شديداً بل انقصاما أكبراً بل انفجاراً هائلا يجر فى كثير من الأحيان مضرة فاجعة وخسارة قاصمة . ولا شك فى أن القلق قد حطم عشرات الآلاف من الناس ولكن لو اجتمعت الأوبئة والحروب والمجاعات لما أمكن أن تفتك بالعباد ، فتك القلق . والتاريخ مشحون بألوان الدمار التى ألحقها بالعالم هذا الثالوث الذى يتهاوى ويتضاءل أمام القلق .

إن القلق لا يوقد النار ولا ينفخ البوق ولا يضرب النفير ولا يدق الطبول ولا يترك صفوفاً من الأشلاء فى الحومة ومنازل الوقائع كما تصنع الحروب .. إنه لا يسفع المزارع ويدقعها كما يصنع الفحط .. إنه لا يثير الاهتمام العام الذى يستوجبه الوباء الفاشى ، ولكنه يشبه السوس الذى ينخر خلسة فى الثلال ويفسدها .. إنه كالدودة التى تسطو فى هدوء ، على مزارع الأقطان وتيبسها .. إنه يشبه اللص — يتسلل خفية إلى عقلك وقلبك ، ويبدأ عمله المهلك — وهو العمل الذى يفضى آخر الأمر إلى المرض والموت ، ما لم تسارع إلى ردعه ، وحبس عنانه والضرب على يده .. أفلا يجمل بنا بعد هذا كله أن نطرح عنا جوالق همومنا ، ونحيا حياتنا ، ونتقبل كل يوم من أيامها — كما يجىء !!

الزهيره